رجع إلى الجزيرة، وأقام بها سنين، وكان فيها عَيْنٌ، فكان يشربُ منها ويتوضأ، ثم رَجَعَ إلى آمُل، فسكنها إلى أن توفي في جُمادى الأُولى، وقبره بآمُل يُتَبَرَّك به.

وقال بعضُ أصحابه: مضيت إلى تلك الجزيرة، فرأيتُ فيها ثعباناً يبتلع ابنَ آدم، فزرت موضع سجوده، ورجعت.

[**فصل**: وفيها توفيت والدة المسترشد[١]، كانت صالحة متصدِّقة، توفيت ليلة الاثنين تاسع عشرة شوال، وصلى عليها المسترشد ليلاً، وحملت إلى الرُّصافة][٢].

السَّنة التاسعة والعشرون وخمس مئة

فيها قُتِلَ المسترشد، ودُبَيْس، [وشمس الملوك صاحب دمشق][٣]، ومات طُغْرِيل السُّلْطان.

وفيها أخرجَ الخليفة سُرادِقَه إلى رؤوس الحيطان، لأَنَّه اطَّلع على سوءِ نية مسعود.

ووصل الخبر بوفاة طُغْرِيل بهَمَذَان، فسار مسعود جريدةً[٤]، ولحقه عسكره، وأعاد الخليفة سُرادقه إلى داره، وأما مسعود فإنَّه وَصَلَ هَمَذَان، واختلف عليه العسكر، فكان ممن انعزل عليه قزل وسُنْقُر والبازدار[٥] وغيرهم، ونزلوا بعيداً من هَمَذَان، فأسرى إليهم، وبَيَّتَهُمْ، فبدَّدَ شَمْلَهم، ونَهَبَ أثقالهم، فورد هؤلاء الثلاثة بغداد، وأخبروا بسوء نيَّته في الخِلافة.

وخَرَجَ أنوشروان لوزارة السُّلْطان مسعود، فَنُهِبَ جميعُ ما كان معه في الطَّريق.

وفي المحرم وَصَلَ زَنْكي بغداد، فالتقاه الوزيرُ وأرباب الدَّوْلة، ودَخَلَ، وقَبَّلَ عَتبة الباب النُّوبي، وقال: أنا وأبي عبيدُ هذه العَتَبة، وما زالت العبيد تجني والموالي تعفو.

---

(١) لها ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٤١ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، والرصافة هي رصافة بغداد.

(٣) في (ع) و(ح): بوري، وهو وهم، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) أي لم يكن معه رجَّالة، انظر «اللسان» (جرد).

(٥) في (ع): البادزاني، وفي (ح) البارذان، والمثبت من «المنتظم»: ١٠/ ٤١ ، وسيأتي على الصواب ص٢٦٥ .

وقدَّم الهدايا والتُّحَف، ومفاتيح أبواب الموصل، فأُنْزِلَ وأُكرم، وأقام أياماً، وخُلِعَ عليه، ورَحَلَ إلى الشَّام ليأخذ دمشق.

وجاء رسولُ دُبَيْس يستعطف الخليفة، فلم يعطف عليه، فمضى دُبَيْس إلى مسعود.

وفي صفر وصل ابنُ الأنباري من عند سنجر، وأخبر أنه تُلُقِّيَ من أربعة فراسخ، وأن سنجر نزل من التَّخْت مراراً، وقبَّلَ الأرضَ وحافِرَ فرسِ الخليفة.

وفي ربيع الأول[1] وردتِ الأخبارُ بتغيُّرِ مسعود على الخليفة تغيُّراً كُلِّيًّا، وأَنَّه قد جمع العساكر ومقصوده بغداد، ووصلت مقدّمته إلى حُلْوان، وفيها دُبَيْس، وأقطع مسعود العساكر العراقَ، وبلغ الخليفة، فبعث مقدمته إلى المَرْج، وفيها الجاولي شِحْنة بغداد، وكجبة، وأرغش، وجماعةٌ من السِّلاحية في ألفين وخمس مئة فارس، وقال: تحفظون الطَّريق إلى أَنْ أَصِلَ إليكم.

وكان زَنْكي على دمشق يحاصرها، فبعث أهلُها يقولون للخليفة: رَحِّله عنا، ولك في كلِّ سنة خمسون ألف دينار. فَبَعَثَ إليه، وقال: ارْحَلْ، واقْدُمْ علينا لتساعدَنا على مسعود، ونَخْطُب لك. فقال: سَمْعاً وطاعةً.

وكان سنجر قد كَتَبَ إلى مسعود يقول: ما دام البازدار وابن بُرْسُق وقزل ويرنقش معك ما تُصِيْبُ خيراً، فهم الذين أفسدوا أمر أخيك طُغْريل، فابعثْ إليَّ برؤوسهم. فأطلعهم مسعودٌ على الكتاب، وقال: لو أردتُ بكم سوءاً لفعلت. فقبَّلوا الأرضَ، وقالوا: الآن قد عَلِمْنا أَنَّك صافي القلب لنا، فابْعَثْنا مع دُبَيْس في المقدِّمة. فَبَعَثَ بهم، فقالوا: ما وراء هذا الكلام خير، والواجب خدمة أمير المؤمنين، فله في رقابنا عهود، وهذا عاقبة الغدر. فكتبوا إلى الخليفة: قد انفصلنا عن مسعود، ونحن ببلاد ابنِ بُرْسُق، فإنْ كانت لك نِيَّةٌ في الخروج فاخْرُجْ، فنحن بين يديك، وإلا فاخْطُبْ لبعضِ أولاد السُّلْطان، ونَفِّذْه إلينا لنكون معه. فكتب إليهم: دوموا على ما أنتم عليه، فأنا صائِرٌ إليكم. وبعثَ سديدَ الدولة [إليهم يطيِّبُ قلوبَهُمْ، ويَعِدُهُمْ الإقطاعَ، وبلغ مسعوداً،

(١) في (ح): الآخر.

فرحل إليهم جريدةً ليَكْبِسَهم، فانهزموا، فأخذ أموالهم، وسَبَقَ سديدَ الدولة][1] إلى بغداد ليخبر بحالهم، فأعيد إليهم بالخِلَع والأموال والإقامات.

فلما كان يوم السبت حادي عشرة رجب تقدَّم الخليفة بإخراجِ مضاربه ومضاربِ أصحابه، وانزعج أهلُ بغداد، وبَعَثَ السُّلْطان دُبَيْساً في خمسة آلاف، فكَبَسَ المقدِّمة، وقَتَلَ منهم، فدخلوا بغداد عُراةً سادس عشرة رجب، فأنزلهم الخليفة دارَ السُّلْطان، وبَعَثَ إليهم بالأموال والخيل والإقامات والخِلَع، وأطلق لهم ثمانين ألف دينار، وقُطِعَتْ خُطْبة مسعود، وخُطِبَ لسنجر وداود، واستفتى الفقهاءَ في مسعود، وأنَّه خالف، فأفتوا بعَزْلِهِ وقتالِهِ، وخَرَجَ الخليفةُ في أُبَّهة الخِلافة، والخلائقُ يمشون بين يديه حتى نَزَلَ سُرادِقَه عند رؤوس الحيطان، ودَخَلَ الوزيرُ شرفُ الدِّين علي بن طِراد، وسديدُ الدَّوْلة بنُ الأنباري، وكمال الدين بنُ طلحة صاحِبُ المخزن على الخليفة، فقال له الوزير: يا مولانا، في نفسي شيءٌ، فهل يُؤْذنُ لي في المقال. فقال: قُلْ. فقال: إلى من نمضي، وبمن نعتَضد، وإلى من نلتجئ؟ ومقامنا ببغداد أصلح وأحوط لنا إذا قَصَدَنا[عدو][1] كُنَّا مستظهرين، ولما خَرَجَ الحسين عليه السَّلام من الحجاز إلى العراق جرى عليه ما جرى، ولو أقام بمكَّة ما اختلفَ عليه اثنان. فقال الخليفة لابنِ الأنباري: ما تقول أنتَ يا كاتب؟ فقال: الرأي ما رآه الوزير، والرأي المقام، وليتَ العراق تبقى علينا. فقال لصاحب المخزن: ما تقول أنتَ يا وكيل؟ فقال: في نفسي ما في نفسِ مولانا. وكان هو الذي حَمَلَه على الخروج، فأنشد المسترشد: [من الخفيف]

غيرَ أنَّ الفتى يلاقي المَنَايا ... كالحاتٍ ولا يلاقي الهَوانا
وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ ... فمن العَجْزِ أنْ تموتَ جَبَانا[2]

فاسترجع القوم، وأيقنوا بالهلاك.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ح).

(٢) البيتان للمتنبي من قصيدة مطلعها:

صحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من شأنه ما عنانا

وهي في «ديوانه»: ٤/ ٣٧٠-٣٧٢، وفيه: فمن العجز أن تكون جبانا.

ثم رحل يوم الخميس ثامن شعبان في سبعةِ آلاف فارس، وكان مسعود بهَمَذَان في ألفٍ وخمس مئة فارس، وكان أصحابُ الأطراف قد كاتبوا الخليفة، فتوقف في طريقه، فاستَصلَحَ مسعود أكثرهم حتى صار في خمسة عشرة ألفاً، وتسلَّل جماعةٌ من أصحاب الخليفة حتى صار في خمسة آلاف، ونفَّذَ إليه زَنْكي نَجْدةً فلم تلحق، وأرسل داود بن محمود إلى الخليفة وهو بأَذْرَبيجان، يشير أنَّ الخليفةَ ينزل الدِّيْنَور حتى يوافيه داود، فلم يقبل، واستعجل في ضرب المصافِّ.

فلما كان يومُ الاثنين عاشر رمضان التقوا، فجعل الخليفة على ميمنته البازدار وقزل وغيرهما، وفي ميسرته الأُمراء السِّلاحية، وكانت الوقعة [قريب][1] من جبل بَهِسْتون[2]، فحملت ميمنةُ الخليفة فكسرت ميمنةَ مسعود، فانهزموا ثلاثة فراسخ، ونادى مسعود: المال لكم والدَّم لي، ومن أقام بعد الوقعة من أصحاب الخليفة ضُرِبَتْ عُنُقُه. فغدرت ميسرةُ الخليفة، ومالت كلُّها إلى مسعود، وجاءت ميمنةُ الخليفة من وراء الميسرة، فوجدت الميسرة قد مالت إلى مسعود، فانهزموا لا يلوون على شيء، وأُسر المسترشد وأصحابه، وأُخذ ما كان معه من الأموال، وكانت على سبعين بغلاً في صناديق، أربعة آلاف ألف دينار، وكان رَحْلُه على خمسة آلاف جمل وأربع مئة بغل، فيها عشرة آلاف عِمامة، وعشرة آلاف قَبَاء وجُبَّة ودُرَّاعة، وعشرة آلاف قَلَنْسُوة مُذْهَبة، وثلاثة آلاف ثوب رومي وممزوج ودَبِيْقي. ومضى من النَّاس ما قَدَّروه بعشرة آلاف ألف دينار سوى الخيل والأثاث، ولم يُقْتل بين الصَّفَّين سوى خمسةِ أنفس غَلَطاً، ونادى مسعود: مَنْ أقام مِنْ أصحاب الخليفة بعد الوقعة قَتَلْتُه. فهرب الناس، وتفرَّقوا في الجبال، وتخطَّفَهم الأكرادُ والتركمان، ووصَلَ مَنْ سَلِمَ منهم إلى بغداد عُراةً حُفاة، قد تَقَطَّعَتْ أَرْجُلُهم من الصَّخْرِ والحَفَاء، ومات أكثرهم، وحَمَلَ مسعودٌ الوزيرَ ابنَ طراد وابنَ الأنباري وابنَ طلحة وقاضي القضاة الزَّيْنبي ونقيبَ الطَّالبيين إلى القلعة معتقلين، ثُمَّ كَتَبَ مسعود كتاباً مع بكبة، وولَّاه شِحْنكية بغداد، وفي الكتاب عن لسان الخليفة إلى أستاذ الدَّار: ليعتمد الحسن بن جَهِير مراعاة الرَّعية، والاشتمال عليهم، وكفِّ

(١) ما بين حاصرتين من (ح).

(٢) جبل عالٍ مرتفع، قرب قرية بهستون، وهي بين همذان وحلوان، انظر «معجم البلدان»: ١/ ٥١٥ .

الأذى عنهم، فقد ظَهَرَ من الولد غياثِ الدِّين[١] ـ متَّع الله به ـ في الخِدْمة ما صَدَقَتْ به الظُّنون، فَلْيُجْمِعْ وكاتبَ الزِّمام والمخزن على إخراج العُمَّال إلى نواحي الخاصّ لحمايتها، فقد نُدِبَ من الجَنَاب الغياثي هذا الشِّحْنةُ لذلك، وَلْيَهْتَمَّ بكُسْوة الكَعْبة، فنحن في إثْر هذا المكتوب واصلون، إنْ شاء الله تعالى.

فلما كان يومُ عيد الفِطْر نَفَرَ أهلُ بغداد، ووثبوا على الخطيب، وكسروا المِنْبر والشُّبَّاك، ومنعوه من الخُطْبة، وخرجوا إلى الأسواق يحثون على رؤوسهم التراب، ويبكون ويصرخون، واقتتل أصحابُ الشِّحنة والعوام، وخَرَجَ النِّساء حاسراتٍ يَنْدُبْن في الأسواق، وتحت التَّاج، وقُتِلَ من العوام مئةٌ وثلاثة وخمسون، وهَرَبَ أبو الكرم الوالي وحاجب الباب إلى دار خاتون، وأشرفت بغداد على النَّهْب، فنادى الشِّحنة: لا ينزل أحد في دار أحد، ولا يؤخذ من أحد شيء، فإنَّما جِئْنا في الصُّلْح، والسُّلْطان واصِلٌ إلى هاهنا بين يدي أمير المؤمنين، وعلى كتفه الغاشية. فَسَكَنَ النَّاس.

وأما حديث الخليفة، فاختلفتِ الأقوال؛ فقومٌ يقولون: إنَّ مسعوداً ينتظر جوابَ عَمِّه سنجر، وقوم يقولون: يصل عن قليل، وقوم يقولون: إنَّ داود قد عَزَمَ على قتال مسعود، واستنقاذِ الخليفةِ منه.

وسار داود لقتال مسعود، وجاء مسعود إلى مَرَاغة[٢]، والخليفة معه.

و[فيها][٣] زُلْزِلَتْ بغدادُ مراراً [لا تحصى][٣]، وكان مبدأ الزَّلازل يوم الخميس حادي عشر شَوَّال، فزلزلت يومئذٍ ستّ مَرَّات ودامت كل يوم ست مرات إلى ليلةِ الجُمُعة سابع عشرين شَوَّال، ثم ارتجَّت ليلة الثلاثاء نصف اللَّيل حتى تفرقعت السقوف، وانتثرت الحيطان، ولم تزل الأرضُ تميد من نصف الليل إلى الفَجْر والناس يستغيثون، وانقطع خبر العسكر [الذي كان قد خرج من بغداد][٣].

فلما كان يوم الثلاثاء غُرَّة ذي القَعدة وصل ركابيةٌ معهم خَطُّ الخليفة إلى وليِّ عهده بوصولِ رسولِ سنجر إلى مسعود، يقول: ساعة وقوف الولد العزيز غياث الدِّين مسعود

---

(١) هو لقب السُّلْطان مسعود، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٤٧ هـ).

(٢) مراغة، بالفتح: بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٩٣ .

(٣) ما بين حاصرتين من (ح) و(م) و(ش).

على هذا المكتوب، يدخل على أمير المؤمنين ـ أَعَزَّ اللَّه أنصاره ـ ويقبِّل الأرضَ بين يديه، ويقف ويسأله العفو عنه، والصَّفْحَ عن جُرْمه، فقد ظهر عندنا من الآثار السَّمائية والأرضية مالا طاقةَ لنا بسماع مِثْلها دون المشاهدة من الرِّياح العواصف، والبروق الخواطف، وتزلزلِ الأرض، ودوامِ[1] ذلك عشرين يوماً وتشوُّشِ العساكر، وانقلابِ البُلْدان، ولقد خِفْتُ على نفسي من جانب الله تعالى وظهورِ آياته، وجانبِ المخلوقين والعساكر، وتغيُّرهم عليَّ، وامتناع النَّاس من الصَّلاة في الجوامعِ، وكَسْرِ المنابر، ومَنْعِ الخطباء ما لا طاقةَ لي به، فالله اللهَ تتلافى أمرك، وتحقن دماءَ المُسْلمين، وتعيد أميرَ المؤمنين إلى مُسْتَقَرِّ عِزِّه، وتُسَلِّم إليه دُبَيْساً ليرى رأيه فيه، فإنَّه هو الذي أحوجَ أميرَ المؤمنين وأحوجنا إلى مِثْل هذا، وعَجِّلْ، وانصِبْ له السُّرادِق، واضرِبْ له الخيام والتَّخْت، واحملِ الغاشيةَ بين يديه، أنتَ وجميعُ الأمراء، كما جرت عادتُنا وعادةُ أهلِ بيتنا وآبائنا في خِدْمة هذا البيت.

وكان مِحالاً[2] من سنجر ليدفعَ عنه التُّهَمَة.

فلما وقَفَ مسعودٌ على كتاب سنجر بعث بالوزير أنوشروان ـ وكان قد استوزره ثانياً، وشَهِدَ معه هذه الوقعة ـ وبعث معه بنظر الخادم إلى الخليفة يستأذن في دخوله عليه، فأَذِنَ له، فدخل، فقبَّل الأرضَ بين يديه ووقف معتذراً متنصِّلاً، يسألُ العفو والصَّفْحَ عن جُرْمه، والخليفةُ مُطْرِقٌ ساعةً، ثم رَفَعَ رأسه، وقال: قد عُفي عن ذنبك، فاسْكُنْ إلى ذلك، وطِبْ نَفْساً.

وكان قد ضُرِبَ له التَّخْت في سُرادق، فقدَّمَ له فرساً لم يكُ عند مسعودٍ من خيل الخليفة التي أُخذت غيره، وسأله الركوب، فركب، وكان بين الموضعين نصف فرسخ، ومسعود بين يديه، على كتفه الغاشية، ويده في لجام فرس الخليفة، وجميع الأمراء يمشون بين يديه حتى دخل السُّرادق، وجَلَسَ على التخت، ووقف السُّلْطان بين يديه زماناً، فأمره بالجلوس، فأبى، ثم سأل الخليفةَ أن يشفِّعَه في دُبَيْس، فأجابه، فجاؤوا به مكتَّفاً بين أربعة، ومع أحد الموكلين به سيفٌ مجذوب، ومع آخر شقة

(١) في (ع) و(ح): ودام، والمثبت من «المنتظم»: ١٠/ ٤٧ .

(٢) المحال: المكر. انظر «اللسان» (محل).

بيضاء، فرموا به بين يدي السَّرير، وهو يقول: العفوَ العفوَ عند القُدْرة. فقال مسعود: هذا هو السَّببُ فيما جرى بيننا، فإذا زال السبب زال الخلاف، وهذا الآن بين يديك، فمهما تأمر يُفعل به، ودُبَيْس يبكي ويتضرَّع بين يدي السَّرير، فقال الخليفة ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[يوسف: ٩٢] وتقدَّم بحَلِّ كِتافه[١]، وسألَ السُّلْطانُ الخليفةَ أَنْ يُنْعِمَ على دُبَيْس بتقبيلِ يده، فأعطاه يده، فقبَّلها، وأمرَّها على وجهه وصَدْره، وأقام الخليفةُ مكانه حتى قُتِلَ في ذي القَعدة، وسنذكره إن شاء الله تعالى[٢].

وأما بكبة فإنَّه شَرَعَ في نَقْضِ سور بغداد، وكلَّف أهلَ محالِّ الجانبِ الغربي بنَقْضه. وقال: أنتم عمرتموه فانقضوه. واستطالَ على أهل بغداد.

وقال ابنُ القلانسي: وفيها هَرَبَ الحاجبُ يوسف بن فيروز شِحْنة دمشق إلى تدمر خوفاً من شمس الملوك بن بوري، وكانت تدمر لشهاب الدِّين محمود بن بوري في زمان أبيه، فَسَئِمَ من المقام بها، وسأل أباه نَقْلَه إلى دمشق، فأجابه، فاستعان يوسف بجماعةٍ من الأمراء على تحصيل تدمر، فخاطبوا بوري، فأعطاه إياها، فَشَرَع في ترميم حِصنها، ونَقْلِ الغِلال والذَّخائر إليه. فلمَّا تنكَّر عليه شمسُ الملوكِ، وعزم على مصادرته وهلاكه هَرَبَ إلى تدمر، ونَدِمَ شمسُ الملوك على إفلاته من يده، فكاتَبَه واستماله، وطيَّب قلبه، فلم يلتفت إليه، وقال: أنا [الغلام] الخادم المقيم على الخِدْمة. ولم يَعُدْ إليه[٣].

فصل: وفيها توفي

إسماعيل بن بوري بن طُغْتِكِين، شمس الملوك، صاحبُ دمشق[٤]

وكان قد ساءت سيرته، وصادر النَّاس، وأخذ أموالهم، وولَّى عليهم رجلاً كردياً يقال له بدران الكافر، فَشَرَع في العقوبات، وأنواع العذاب، وظهر من شمس الملوك

(١) الكتاف: الحبل الذي يكتف به الإنسان. انظر «اللسان» (كتف).

(٢) انظر ص ٢٧٨-٢٨٠.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ٣٨٦-٣٨٧، وما بين حاصرتين من (ح).

(٤) انظر كذلك في ترجمته «ذيل تاريخ دمشق»، لابن القلانسي: ٣٧٨-٣٩٠، و«الكامل» ١١/ ٢٠-٢١، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٥٧٥-٥٧٦.

شحٌّ زائد، وقَتَلَ غِلْمان أبيه وجَدِّه، وأخذ أموالهم، فكتب أهلُ دمشق إلى زَنْكي يسألونه المسير إليهم، فَشَرَع في التأهُّب، فكتب إليه إسماعيل: لا تحشدْ ولا تجمعْ، تعال بسرعة وأنا أسلِّم إليك البلد بعد أن تمكِّنني مِنْ بعض أهله ممن في نفسي منهم. ووالى المكاتبة إليه بخطِّه: لئن لم تقدم وإلاَّ سَلَّمْتُ دمشق إلى الفرنج. وشَرَعَ في نَقْلِ أمواله وذخائره إلى حِصن صَرْخَد، وقَبَضَ على جماعةٍ من الأعيان، فاتفقوا على قَتْلِهِ [وقالوا: هذا نوع سوداء، وكلما جاءت يزداد، وما لها إلا عدمه، فراسلوا][1] أمه زُمُرُّد خاتون، وقالوا: قد عَزَمَ على قتلنا وقتلكِ، وغداً يجيء [أتابك][2] زنكي فيحكم عليك وعلينا. فدخلتْ عليه ولامته [وعاتَبَتْهُ][2] وقالت: أنتَ تكون سبب خراب هذا البيت، فارجِعْ إلى سيرة آبائك. فشتَمها، وتهدَّدها بالقَتْلِ، وأسمعها كلاماً قبيحاً، فأرسلت إليهم، وقالت: دونكم وإياه. فَرَتَّبوا له جماعةً من الغِلْمان باتِّفاقٍ من أُمِّه، فقتلوه في دِهْليز قلعة دمشق في رابع عشر ربيع الأَوَّل[3]، [فكانت ولايته ثلاث سنين، لأنه ولي في رجب سنةَ ستٍّ وعشرين وخمس مئة][2] وأجلست أُمُّه أخاه، [محمود بن بوري مكانه، ولقبته شهاب الدين، وهو الذي كانت له تدمر][4]، وجاء [أتابك][2] زنكي إلى حِمْص، فبلغه الخبر، فبعثَ رسولاً إلى دمشق بتسليم البلد، فَرَدَّه شهابُ الدين وخاتون ردًّا جميلاً، فلم يلتفت [زنكي][2]، وجاء بعساكره، فخيَّم بين القُصير وعَذْراء[5] في جمادى الأُولى، وكان يزحف كل يوم، ويقاتل أهل البلد ويقاتلونه، فأقام مُدَّة، فلم يظفر بطائل، واتَّفق وصولُ رسولِ المسترشد يأمره بالرَّحيل إلى بغداد، فرحل، وأقامت خاتون تدبِّرُ الملك مُدَّة، ثم تزوَّجها بعد ذلك زَنْكي، ونَقَلَها إلى حلب، فصار تدبير الملك إلى معين الدِّين أُنَر؛ أحدِ

(١) في (ح) و(ع): فاتفقوا على قتله، وراسلوا أمه...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٩٠، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٢٠: ربيع الآخر.

(٤) في (ع) و(ح): وأجلست أمه أخاه شهاب الدين محمود مكانه، وجاء زنكي.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) القصير: قرية على التخوم الشمالية لغوطة دمشق الشرقية على طريق حمص القديمة، على بعد ٣كم إلى الشمال الشرقي من دوما.

وعذراء: قرية في شمال مرج غوطة دمشق الشرقية، تبعد عن دوما ١٢كم، وعن دمشق ٢٦كم.

مماليك [جَدِّه أتابك][١] طُغْتِكِين، [ثم قتله جماعة مِنْ خَدَمِهِ في سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمس مئة، وأجلسوا أخاه محمداً مكانه، وسنذكره][٢].

وكان إسماعيلُ شهماً شُجاعاً مِقْداماً، مهيباً [وهو الذي خلَّص بانياس من الفرنج][١]، وكانت سيرتُهُ أَوَّلَ ولايته من أحسنِ السِّيَر، أَسْعَرَ بلادَ الفرنج بالغارات، وإنما تغيَّرَتْ سيرتُه في آخر أمره ومدَّ عينه إلى أموال الرَّعية، وأربابِ الدَّولة، وتناهى في ارتكابِ القبائح والمنكرات، وظهر منه بخلٌ زائد، وميلٌ إلى الدَّنايا[٣] بحيث لا يأنَفُ من تناول الخسيس الحقير بالعُدْوان.

[وقد ذكر قصته أبو يعلى بن القلانسي، وذكر بمعنى ما ذكرنا، وفيه بأن الكرديَّ بدران سلَّط الله عليه[٤] أمراضاً في نحره، فمات بعد أن ربا لسانه، وخَرَجَ على صدره، [وكان قتل إسماعيل في اليوم الذي مات في مثله بدران، ليكونا عبرة لأهل الظلم والعدوان، تقدَّمه بدران بثمانية أيام][٥].

وكان مولد إسماعيل في جُمادى الآخرة سنة ستٍّ وخمس مئة، وقيل: في ربيع الآخر [من هذه السنة][٦].

[وذكر[٧] مجيء زَنْكي ومنازلته لدمشق، فلما يئس منها وكان الخليفة قد استدعاه استقرَّ أن يخطبوا لأَلْب رسلان بن السلطان محمود الذي مع زَنْكي، ورَحَلَ][٨].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) أي قتلوا شهاب الدين محمود بن بوري، وما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر ص٣١٩-٣٢٠.

(٣) في (ع) الدنيا، والمثبت من (ح).

(٤) في (ع) و(ح): وسلط الله على بدران الكافر أمراضاً في نحره.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ع) و(ح): وخرج على صدره قبل قتل إسماعيل بثمانية أيام...، وما بين حاصرتين من (ش)، والعبارة غير مستقيمة في (م)، وانظر «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ٣٩٠.

(٦) في (ع): الأول، والمثبت من (ح) و(م) و(ش)، وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٧) يعني ابن القلانسي.

(٨) في (ع) و(ح): ولما استدعى الخليفة زنكي ويئس من دمشق استقر أن يخطبوا لألب أرسلان بن السلطان محمود الذي مع زنكي، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٩٠-٣٩٢.

جعفر ابن شرف، أبو الفَضْل الأندلسي[١]

والد محمد بن جعفر[٢] مصنف كتاب «أبكار الأفكار»، له تصانيفُ كثيرة، وشِعْر مليح. عاش خمساً وتسعين سنة، وقيل جاوز المئة. وقيل: مات سنةَ إحدى وثلاثين وخمس مئة، وله نثر، وهو القائل، [وقيل: إنها لابنه محمد][٣]: [من الكامل]

صَنَمٌ مِنَ الكافورِ باتَ مُعَانقي ... في حُلَّتَيْنِ تَعَفُّفٍ وتكرُّم
فكَّرتُ ليلةَ وَصلِهِ في هَجْرِه ... فَجَرَتْ بقايا أَدْمُعي كالعَنْدَم[٤]
فَطَفِقْتُ أمسحُ مُقْلَتَيَّ بنَحْرِهِ ... إذ عادةُ الكافورِ إمْساكُ الدَّمِ[٥]

وقال: [من الطويل]

لِيَهْنِكَ شَهْرُ الصَّوْمِ لا زلت مُدْرِكاً ... لأمثالِهِ يأتي عليكَ ويَذْهَبُ
صلاتُكَ فيهِ رَحْمةٌ ومَثُوبةٌ ... وصَوْمُك رِضْوانٌ بهِ يَتَقَرَّبُ
وصمتَ بهِ عن كلِّ إثْمٍ وَمَحْرَمٍ ... صيامُ الورى أَنْ يأكُلُوه ويَشْرَبُوا
إلى أن لَقِيْتَ العيدَ بالجِدِّ في التُّقى ... وغَيْرُكَ بالأيَّامِ يَلْهُو ويَلْعَبُ

وقيل: هي لمحمد ابن حَمْدِيس[٦].

---

(١) له ترجمة في «الذخيرة» لابن بسام: ق٣/ ج٢/ ٨٦٧-٨٨٦ ، و«الصلة» لابن بشكوال: ١٣١ ، و«الخريدة» قسم شعراء المغرب والأندلس: ٢/ ١٧١-١٨١ ، و«بغية الملتمس»: ٢٥٦ ، و«المغرب»: ٢/ ٢٣٠-٢٣٢ ، و«نفح الطيب»: ١/ ١٥١ و٣/ ٣٩٣-٣٩٦ ، ووفاته في «الصلة» و«البغية» سنة (٥٣٤ هـ)، وذكر العماد في «الخريدة» وفاته سنة (٥٣١هـ)، وقد أناف على المئة.

(٢) كذا في (ع) و(ح)، وهو خطأ، صوابه: ولد أبي عبد الله محمد مصنف «أبكار الأفكار» كما في «الخريدة» وغيره، ومحمد: هو ابن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني، شاعر مشهور، كان قرين ابن رشيق صاحب «العمدة»، وتوفي سنة (٤٦٠ هـ). له ترجمة في «الذخيرة» لابن بسام: ق٤/ م١/ ١٦٩-٢٤٥ ـ وقد ذكر محققه مظان ترجمته ـ و«الخريدة» قسم شعراء المغرب والأندلس: ٢/ ٢٢٤-٢٣٠ ، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٣٧-٤٣ ، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٩٧-١٠١ .

(٣) ما بين حاصرتين من (ح)، وقوله: لابنه خطأ، صوابه لأبيه، وهو الموافق لما في «الخريدة»: ٢/ ١٧٢ ، وانظر حاشيتنا السابقة.

(٤) العندم: صِبْغ تختضب به الجواري، انظر «اللسان» (عندم).

(٥) «الخريدة» قسم شعراء المغرب والأندلس: ٢/ ١٧٢ .

(٦) أورد العماد هذه الأبيات في «الخريدة» قسم شعراء المغرب والأندلس: ٢/ ٢٠٧ ، في ترجمة محمد ابن حمديس ولد الشاعر المشهور عبد الجبار بن أبي بكر ابن حمديس، وكأنه بذلك يرجح نسبتها إليه، والله أعلم.

دُبَيْس بنُ صَدَقَة بنِ منصور بن دُبَيْس[١]

ابن علي بن مَزْيَد، أبو الأَغَرّ الأَسَدِي.

أصله من بني أسد، وقيل من بني خَفَاجة، وأَوَّل مَنْ نبغ من بيته جَدُّه الأكبر مَزْيَد في أيام بني بُوَيْه، فوَّضوا إليه حماية قرية يقال لها سُورا ـ أو الوقف[٢] ـ من أعمال بغداد، فكان يحمي مرَّة، ويُغَارّ أُخرى، ثم مات.

فقام عليٌّ ولدُه مقامه، وكان عائناً؛ ما وقعتْ عَيْنُه على شيء إلا هَلَكَ، نظر يوماً إلى ابنه بَدْران، فاستحسنه، فمات، وكان يبغض ابنه منصوراً، فقيل له في ذلك، فقال: رأيتُ في المنام كأَنَّه بَلَغَ عَنَان السَّماء وبيده فأسٌ، وهو يقلع الكواكب، ويرمي بها إلى الأرض، ثم وقع بعدها، ولا أشكُّ أنه يبلغ الغاية العليا، ثم يهلك.

ثم مات دُبَيْس، وقام بعده ابنه منصور، فجرى في أيام القائم منه[٣] ما جرى، فإنه لما أخرج القائم إلى الحديثة، عاد ودَخَلَ بغداد، ونَدِمَ حيث لم ينهب دار الخلافة كما فعل قريش، ثم باين البساسيري وقريشاً بهذا السَّبب.

ثم مات منصور وخَلَفَ ابنُه صدَقَة، فخدم ملك شاه، وكان يتردَّدُ إلى بابه، ويحمل إليه الأموال، فلما قُتِلَ نظامُ الملك ومات ملك شاه أَظْهَرَ الخِلافَ لِبَرْكْيارُوق، وعَلِمَ أَنَّ الحِلَّة لا تحميه، فبنى مكاناً على تل بالبطيحة، وشَقَّ حوله الماء، ونقل إليه أمواله، ثم بنى الحِلَّة وخَنْدَقَ عليها، وغَرَسَ فيها البساتين، ثم صار النَّاس يستجيرون به، فيجيرهم، ثم أُعطي داراً ببغداد، فَعَمَرها وكانت لِبِهْرُوز الخادم، ولقَّبَ نفسه سيفَ الدولة، والتجأ إليه العَرَبُ وقُطَّاع الطَّريق، وطمع في البلاد، فانْتُدِبَ له العميد أبو جعفر ثقة الملك، فأخذ فتاوي الفقهاء بقتاله، وأَنَّه لا يقام عنده جُمُعة، ولا جماعة، وأنهم يسبُّون الصَّحابة ﷺ في بلده، ولا عندهم أذان ولا إقامة، وأنهم

---

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٥٢-٥٣ ، و«خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٤/ م١/ ١٧٠-١٧٢ ، و«الكامل» ١١/ ٣٠ ، و«وفيات الأعيان» ٢١/ ٢٦٣ ، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٦١٢-٦١٣ .
وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) في (ع) و(ح) يقال لها سورا وللوقف، وقد استظهرتها هكذا، والله أعلم، انظر «معجم البلدان» ٣/ ٢٧٨ .

(٣) خروج القائم إلى حديثة عانة، ونهب بغداد جرى في أيام دُبيس بن علي، وذلك سنة (٤٥٠هـ) لا في أيام منصور، وهذا وهم من سبط ابن الجوزي، والله أعلم، انظر «المنتظم»: ٨/ ١٩١-٢١٢ .

يشربون الخمور، ويبيحون الزِّنا، والتجأ إليه سرخاب الحاجب، وطَلَبَه منه السُّلْطان، فامتنع، فبعث إليه بالعساكر فَقُتِلَ، وقد ذكرناه[١].

ثم قام بعده ولده دُبَيْس صاحب هذه التَّرجمة، وكان شَرَّ أهلِ بيته، يرتكب الكبائر، ويفعل العظائم أكثر ما كان يفعل آباؤه، ولقي منه الخليفة والمسلمون فنونَ الأَذى، وبشؤمه بَطَلَ الحج مراراً، وأباح الفروج في نهار رمضان، وكان يرى رأي الباطنية.

ولما نزل الأمير أبو الحسن بن المستظهر من التَّاج، والتجأ إليه ظَنَّ أنه يحفظ الذِّمام مثل أبيه، فباعه بيعَ العبيد، ونهبه، وأخذ منه جوهراً قيمته ثلاث مئة ألف دينار.

وطغا على المسترشد وحاربه، فكسره المسترشد، ومضى إلى الشَّام، ووقع بيد زَنْكي، ومَنَّ عليه وأطلقه، فمضى إلى مسعود وإلى سنجر، وهو الذي حَسَّن لهما قَتْلَ المسترشد، ولم يظفر بطائل، فَعَزَمَ على الهرب، ووجَدَ له مسعودٌ مكاتباتٍ إلى زَنْكي يقول: اللهَ أن تقع [في يد][٢] مسعود، واحفظ رأسك. فبعث إليه مسعودٌ غلاماً أرمنياً من سلاحِيَّته، فدخل عليه الخيمة وهو مُطْرِقٌ يَنْكُتُ الأرض بأصبعه، فما أحسَّ به حتى ضرب رأسه بالسَّيف، فأبانَه.

ويقال: إنه سُحِبَ إلى بين يدي مسعود، فقام إليه بنفسه فضربه، [فقطع رأسه، وكان ذلك في عشرة ذي الحِجَّة][٣]، فكان بين قَتْلِهِ وقتلِ المسترشد خمسةٌ وثلاثون يوماً، وقيل ثمانية وعشرون يوماً، وما كان بنو سلجوق يتقونه إلا ليكون في وجه الخليفة.

وقال العماد الكاتب: بنو مزيد الأسديون النَّازلون بالحِلَّة على الفرات ملوك العرب وأمراؤها، وكانوا ملجأَ اللاجئين وثِمالَ[٤] الرَّاجين، وموئلَ المُعْتَفين[٥]، وكهفَ

---

(١) انظر حوادث سنة (٥٠١هـ).

(٢) ما بين حاصرتين من (ح).

(٣) في (ع) و(ح): قطع رأسه في تاريخ حادي عشر ذي الحجة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م)، وفي (ش): عشرين ذي الحجة.

(٤) الثمال: الملجأ والغياث، والمُطْعم في الشدة. «اللسان» (ثمل).

(٥) المعتفين: أي طلاب المعروف أو الأضياف: عفوت الرجل: إذا طلبت فضله، والعافية والعُفاة والعُفَّى: الأضياف، وطلاب المعروف، وفلان تعفوه الأضياف وتعتفيه الأضياف. «اللسان» (عفا).

المستضعفين، ومنهم بهاء الدَّوْلة أبو كامل منصور بن دُبَيْس، توفي أبوه أبو الأغرّ دُبَيْس سنة أربعٍ وسبعين وأربع مئة، وكانت إمارته سبعاً وستين سنة، وكان منصورٌ منصوراً في الأمور، مقصوراً زمانُه على إيواء طالب القِرى المقرور، فارس العرب وشجاعها، ومجيد العساكر وجماعها.

ثم ذكر دُبَيْساً وقال: قتله مسعود صَبْراً بعد قَتْلِ المسترشد بشهر، يوم الأربعاء رابع عشرة ذي الحِجَّة بالمَرَاغة، وكان ينشد كثيراً: [من الكامل]

إنَّ اللَّيالي للأنامِ مناهِلٌ ... تُطْوَى وتُبْسَطُ بينها الأَعْمارُ
فقِصارُهُنَّ مع الهمومِ طويلةٌ ... وطِوالُهُنَّ مع السُّرورِ قِصارُ[1]

وقال ابن السَّمْعاني: وقفتُ على كتاب «الوِشاح»[2]، وفيه: كتب بَدْران بنُ صدقة[3] إلى دُبَيْس وإخوته: [من الطويل]

ألا قُلْ لمنصورٍ وقُلْ لمسيّبٍ ... وقُلْ لدُبَيْسٍ إنَّني لغرِيْبُ
هنيئاً لكمْ ماءُ الفُرَاتِ وطِيْبُهُ ... إذا لم يكنْ لي في الفُرَاتِ نَصِيْبُ

فكتب إليه دُبَيْس: [من الطويل]

ألا قُلْ لبدرانَ الذي حَنَّ نازعاً ... إلى أرضِهِ والحُرُّ ليس يخيبُ
تمتعْ بأيَّامِ السُّرورِ فإنَّما ... عِذارُ الأماني بالهموم يَشِيْبُ
ولله في تلكَ الحوادثِ حِكْمَةٌ ... وللأرضِ من كأسِ الكرام نصيبُ[4]

وقال دُبَيْس: [من السريع]

حبُّ عليِّ بن أبي طالبٍ ... للنَّاسِ مِقْياسٌ ومِعْيارُ
يُخْرِجُ ما في أَصلِهِمْ مِثْلَما ... يُخْرِجُ غِشَّ الذَّهبِ النَّارُ[5]

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٤/ م١/ ١٧٢.

(٢) هو «وشاح الدمية» لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي، وهو ذيل على «دمية القصر وعصرة أهل العصر»، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٨٧.

(٣) ستأتي ترجمته ص ٢٩٨ من هذا الجزء.

(٤) «الخريدة» ج٤/ م١/ ١٧٢-١٧٣.

(٥) المصدر السالف.

وقال: [من البسيط]

ما لامني فيك أعدائي وعُذَّالي إلا لِغَفْلَتِهِمْ عنِّي وعن حالي
لا طيَّب الله لي عَيْشاً ألَذُّ بِهِ إنْ دارَ ذِكْرُ السُّلُوِّ اليومَ في بالي

وقال: [من المتقارب]

ولمَّا رأيتُكَ خَوَّانةً تَزِيْنُ القبيحَ فِعالاً جميلا
تَسَلَّيْتُ عنكَ بمن لا أُحِبُّ[1] فَدَبَّ السُّلُوُّ قليلاً قليلا

وقيل: إنَّ دُبَيْساً لما قُتِلَ، تزوَّج مسعود بابنته شرف خاتون، وأُمها بنت عميد الدولة ابن جَهِير، وحُمِلَ دُبَيْس إلى زوجته كهارخاتون بمارِدِين، فدفن بميَّافارِقِين عند [نجم الدين][2] إيلغازي.

عبد الله بن محمد بن عبدالله[3]

أبو بكر الدِّمَشْقي [المؤدِّب، ويعرف بابن النَّبيه][2].

قرأ القرآن [علي أبي الوحش بن مُسَلَّم][2]، وسمع الحديث ووعظ، وتوفي في صفر بدمشق، وكان ثِقَةً، وله قَبُول، وأنشد يوماً على المنبر بجامع دمشق لنفسه: [من المنسرح]

يا قَلْبُ إنَّ الذي كَلِفْتَ به أَقْسَمَ لا حالَ عن تغضُّبِهِ
وأنتَ خَبَّرْتَني بأنَّك لا تَسْطِيْعُ صَبْراً على تَجَنُّبِهِ
فكيفَ أرجو البقاءَ بينكُما قد حرتُ واللهِ في تَطَلُّبِهِ

[سَمِعَ أبا الحسن ابن قيس، وأبا محمد الأكفاني، وغيرهما، وروى عنه الحافظ ابنُ عساكر وغيره][2].

---

(١) في (ح) و(ع): بمن لا أريد، والمثبت من (م) و(ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ترجم له ابن عساكر في «تاريخه»، ولكن لم أقف على ترجمته في النسخة التي بين يدي.

الفضل بن [أحمد بن][١] عبد الله أبو منصور المسترشد بالله[٢]

أمير المؤمنين، وأمه لبابة أم ولد. [وقد ذكرنا أنه][٣] ولد في سنة أربعٍ أو خمس أو ستٍّ وثمانين وأربع مئة، وكان شهماً، شجاعاً ذا هِمَّةٍ، متشاغلاً بالخير والعبادة، سالكاً سيرة القادر [والقائم][٣].

قرأ القرآن، وسمع الحديث [على ابن بيان وأحمد بن السِّيبي][٣]، وروى عنه وزيره عليُّ ابن طراد [الزَّينبي][٣] وغيره، [وقد ذكرنا أنه قرئ عليه الحديث لما سار إلى قتال دُبَيْس][٣]، وكان له شعر [ذكر منه العماد الكاتب في «الخريدة»،][٣] فمنه: [من الطويل]

أنا الأَشقرُ الموعود[٤] بي في الملاحم ... ومَنْ يملكُ الدُّنيا بغير مُزاحم
ستبلغُ أرضَ الرُّومِ خيلي وتُنْتضى ... بأقصى بلادِ الصِّيْن بِيْضُ صوارمي[٥]

ذكر مقتله: قد ذكرنا خروجه للقاء مسعود، وخِذْلان العساكر له، وورود كتاب سنجر على مسعود يلومه [فيما فعل][٣]، ويأمره بحمل الغاشية[٦] بين يديه، وأنه حملها وضَرَبَ له السُّرادق وفيه التخت، [وأجلسه عليه][٣]، فلما كان في تلك الليلة رأى في منامه كأنَّ في يده حمامةً مطوَّقة، وقائلاً يقول له: خلاصُك في هذه. فلما أصبح، أخبر الأمير ابن سُكَيْنة بمنامه، وكان عنده[٧]، فقال: يا أمير المؤمنين، فما أَوَّلته؟ فقال: ببيتٍ لأبي تمَّام [من الكامل]

---

(١) ما بين حاصرتين مثبت من مصادر ترجمته.

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٥٣-٥٤ ، و«خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ٢٩-٣١ ، و«الكامل»: ١١/ ٢٧-٢٨ ، و«مفرج الكروب»: ١/ ٥٨-٦٢ ، و«مختصر التاريخ» لابن الكازروني: ٢١٩-٢٢٣ ، و«الفخري»: ٣٠٢-٣٠٧ ، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٥٦١-٥٦٨ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ع): المدعو، والمثبت من (ح)، وهو الموافق لرواية «الخريدة».

(٥) «خريدة القصر»: ٢/ ٣٠ .

(٦) الغاشية: هي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعاً مصنوعة من الذهب، تحمل بين يديه عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها الركاب دارية، رافعاً لها على يديه يلقيها يميناً وشمالاً. «صبح الأعشى»: ٤/ ٧ .

(٧) في (م) و(ش): فلما أصبح وكان عنده الأمير ابن سُكينة الذي قتل معه، فأخبره بمنامه، فقال: يا أمير المؤمنين.. قلت: وفي «السِّيَر» وغيره أن ابن سُكينة كان إمامه في الصلاة.

هُـنَّ الـحَـمَـامُ فـإنْ كَـسَـرْنَ عِـيـافَـةً حـاءَ الـحَـمَـامِ فـإنَّـهُـنَّ حِـمـامُ[1]

وخلاصي في حِمامي، فيا ليتني تخلَّصتُ من الأَسْر والذُّلِّ والحَجْر عليَّ بالموت. فَقُتِلَ بعد يومين.

ولما كان في اليوم السَّادس عشر من ذي القَعدة وَصَلَ الخبر بأن رسولاً من عند سنجر واصِلٌ نهار غدٍ يأمر مسعوداً بأن يعيد الخليفة إلى بغداد، ووصل مع الرَّسول سبعة عشرة رجلاً من الباطنية في زِيِّ الغِلْمان، وادَّعى مسعود بعد ذلك أنه لم يعلم بهم، وكَذَبَ بل اتَّفق هو وسنجر على الفَتْك بالخليفة، ودليلُه أَنَّ مسعوداً أفرد لهم خيمةً [قريبة من الخليفة][2]، وأكرمهم، ولم يخفَ على النَّاس فعلُه، وإنما قَصَدَ دفع التُّهَمة عنه، ولم تندفع.

فلما كان يوم الخميس سابع عشر ذي القَعدة ركب مسعود والعساكر لتلقِّي رسول سنجر، فلما أَبْعَدَ، هَجَمَتِ الباطنيةُ على الخليفة، فضربوه بالسَّكاكين حتى قتلوه، وقتلوا من كان عنده من الخُدَّام، ورمى بنفسه عليه الأمير ابن سُكَيْنة، فقتلوه، ووقع الصُّراخ، وجاءتِ العساكر فأحدقت بالسُّرادق، وخرج القومُ والسكاكين بأيديهم، عليها الدَّم، فمالتِ العساكر عليهم، فقتلوهم، وأحرقوهم، وغُطِيَ الخليفة بسُنْدُسة خضراء لفُّوه فيها، ودفن على حاله بباب مَرَاغة، [واختلفوا في مقدار عمره، فقال قوم: كان له خمس وأربعون سنة، وقد ذكرنا مولده، فيكون الاختلاف بحسبه، وكانت][3] خلافته سبع عشرة سنة، وثمانية أشهر وأياماً، وجلس مسعود في العزَاء، ووقَع النحيب والبكاء.

ووصل الخبر إلى بغداد ليلة السبت سادس عشرين ذي القعدة، فاحترز الرَّاشد، وقَبَضَ على جماعةٍ من أهله وإخوته، وكَثُرَ البُكاءُ والصُّراخ، وأُغلق البلد، ونقضت

---

(١) البيت في «ديوان أبي تمام» بشرح التبريزي: ٣/ ١٥٢ بلفظ:

هـن الـحـمـام فـإن كَـسَـرتَ عـيـافـةً مـن حـائـهـن فـإنـهـن حِـمـامُ

وهو من قصيدة يمدح بها المأمون، مطلعها:

دِمَـنٌ ألـمَّ بـهـا فـقـال سـلام كـم حَـلَّ عُـقْـدَةَ صَـبْـرِهِ الإلـمـامُ

(٢) ما بين حاصرتين من (ح) و(م) و(ش).

(٣) في (ع) و(ح)، وعمره خمس وأربعون سنة، وقد ذكرنا مولده، فتكون خلافته سبع عشرة سنة.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

دكاك باب النّوبي، وبات أستاذ الدَّار ابنُ جَهِير، وصاحب الدِّيوان أبو الرِّضى، وصاحب الباب ابن الصَّاحب في صحن السلام، وأُقيم الحَرَسُ في الليل على الأبواب، وأصبح الناس حُفَاة، والنِّساءُ منشراتِ الشُّعور، يَلْطِمْنَ ويَنْشُدْنَ الأشعار التي تُنْشَدُ في المآتم، وقَعَدَ أربابُ الدولة في العزاء ثلاثةَ أيام [وفي اليوم الثالث][1] أقيموا من العزاء، وأُمروا أن يحضروا البيعة.

الباب الثلاثون

في خلافة الرَّاشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد

وأمه خشف أم ولد، وكان أبوه قد نَصَّ عليه، فلما قُتِلَ أبوه بمَراغة كان هو ببغداد، فكتبَ مسعود إلى بكبة الشِّحْنة نائبه ببغداد، يأمره بالاجتماع بأرباب الدَّوْلة والأعيان، ويبايعوا الرَّاشد، فجاء بكبة ليدخل دار الخليفة فَمُنِعَ، واستقرَّ أَنْ يبايعَ من وراء الشُّبَّاك من ناحية الشَّطّ، وجَلَسَ الرَّاشد في المثمَّنة التي بناها المقتدي في الشُّبَّاك، وبايعه بكبة من وراء الشُّبَّاك يوم الاثنين سابع وعشرين ذي القَعدة، وحَضَرَ القُضاة، والعُدول، والأشراف وأربابُ الدولة، وبايعوا على طبقاتهم، وكان أبيضَ جسيماً، وبين يديه أولادُه وإخوته.

ونُودي في النَّاس برَفْع المظالم، والأَمْرِ بالمعروف، والنَّهْي عن المنكر، فلمَّا كان بعد ثلاثة أيَّام أظهر أكياساً فيها حُجَج على النَّاس ووثائق، وما كَتَبَ عليهم ابنُ الهاروني، فَرَدَّها على أربابها، وأشهد عليهم الشُّهودَ أَنَّهم قد أبرؤوا أميرَ المؤمنين مما أَخَذَ منهم، وَرَدَّ عليهم الأموال، فكَثُرَ الدُّعاء له، وحضر قاضي بعقوبا فتظلَّم، وقال: لي وثائق، وما ظلمني أمير المؤمنين، وإنما ظلمني ابنُ الهاروني. ورُفِعَ قوله إلى الرَّاشد، فأمر بعَزْله. وقال: هذا قد كَذَبَ فَفَسَقَ، لأَنَّ ابنَ الهاروني ما أخذ شيئاً إلا بأمر المسترشد.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وقال سديد الدولة ابنُ الأنباري: لما قُتِلَ الخليفة استدعاني السُّلْطان مسعود، فدخلت عليه أنا والوزير شرف الدِّين عليُّ بنُ طِراد، وصاحبُ المخزن ابن طلحة، فقال لنا: قد كان ما جَرَتْ به المقادير، فما الذي تَرَوْن في أمر الخليفة؟ فقلنا: قد نصحناه أَوَّلاً، فلم يقبل. فقال: دعوني من هذا، وخذوا فيما قلتُ لكم. فقال الوزير: الخلافة لولي العهد، وقد بايعه النَّاسُ قديماً وحديثاً. فقال: ما أُقرّه على ذلك، لأنَّه يحدِّثُ نفسه بالخروج عليَّ مثل أبيه، وقد عَلِمْتُم أَنَّ المسترشد خَرَجَ على أخي محمود مرتين، وكان قَصدُه هلاكَ بيتنا، وتَمَّ عليه ما تَمَّ، وقد بقيت علينا شناعة عظيمة، وسُبَّة إلى آخر الدَّهر، يقول النَّاس: قتلوا الخليفة، وقد كانوا هم السَّبب في عَوْدِ الخلافة إلى هذا البيت، ولا أُريد إلا رجلاً ديِّناً لا يُدْخِلُ نَفْسَه فيما لا يعنيه، ولا يخرج عليَّ ولا على أحدٍ من أهلي، وفي الدَّار جماعةٌ، فاعتمدوا على شيخٍ منهم ذي عقل ورأي وتَدْبير، يُلْزِمُ نَفْسَه ما يجبُ من طاعتنا، ولا تعرِّجوا عن هارون بن المقتدي، فإنَّه شيخ كبير لا يَرى الفِتْنة، وقد أشار به عَمِّي سنجر.

قال: وكان في الدَّار جماعةٌ من أولاد المُقْتدي والمستظهر وغيرهما، مقدار نيِّف وعشرين، وكان للرَّاشد نيِّفٌ وعشرون ولداً لما ولي الخلافة، لأَنَّه بلغ لتسع سنين [مضين من عمره، وسنذكره إن شاء الله تعالى][1].

ووصل كتابُ سِنْجر إلى مسعود يقول له: لا تولِّي الأمر إلا من يضمنه الوزير، وابنُ الأنباري، وصاحب المخزن. فقالوا: نرضى الزَّاهِدَ العابد الذي ليس في الدَّار مثله. قال: مَنْ هو؟ قالوا: أبو عبد الله بن المستظهر. يعنون المقتفي ـ وكان صِهْرَ شَرَفِ الدِّين الوزير على ابنته، وكان يوم تزوجها، فُوض إلى أبيها نقابة النُّقباء، ودخل بها، وماتت عنده ـ فقال السُّلْطان: اكتموا هذه الحالة لئلا تتم، فيظهر الخبر، فَيُقْتَلُ أبو عبد الله. ثم تجهز السُّلْطان إلى بغداد، وهم معه.

---

(١) في النسخ الخطية: لسبع سنين، وهو خطأ، صوابه من «مفرج الكروب»: ١/ ٦٢، وما بين حاصرتين من (م) و(ش).